www.kotobarabia.com

رواية

أحمد سليمان

خدر السهو

www.kotobarabia.com

خدر السهو

حين تأكلني أصابعي من رأس فكرة

أحمد سليمان

أنجز العمل : بين روسيا وتركيا

صدر الكتاب عن منشورات كراس في بيروت
عام ١٩٩٦

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

لم يغضبني حين أرسلَ إلي مغلفـاً فارغـاً، لأنني نصحتُه قبلاً بتأليفِ كتابٍ حولَ تربيةِ الإبل بدلاً من الـذي بين يدي الآن

وفي صبيحة يومٍ عطلةٍ، حيثُ كان عيداً تماماً مثـلُ عيدِ القديسِ فالنتاين، وحضرةُ هذا الأخيرِ لـم يكـن مهتمـاً بعيدِهِ، كنتُ أَعد أصابعي على أقلّ من حيلةٍ لأحشو المغلّـفَ شفراتِ حلاقةٍ وأبعثه الى مقاطعةٍ تشبه مزرعةً عنـد إقليـمِ التفاحِ، لم تكن موجودة أيامها المليشياتِ، ولم يكـن القـديس على أتم الإستعدادِ لتفقدِ العشاقِ، كلفني أن أقـوم بـدورِهِ، وكنتُ متعرج الخطى. أصابعي ليستْ معي، لكنـي أتـذكر نسوةً يباركْن ويهتفْن قدومي منتدباً، وأنا بالكادِ أفتكر فـرخَ البطِ ذاك . حزيناً كنتُ وقتَها...، كما كنتُ قبلَ قليلٍ، عنـدما دخلتِ امرأةٌ تتشبه بنساءِ هوليود بنظارتِها وسخطِها المتزايدِ،

حاورها الذي كان منذُ لحظةٍ صديقي...، يحاورهـا متابعـاً بأصابعهِ شفاه النظارةِ، وثيابها المتهدلةِ عبثاً، لم ألمح المشهد كاملاً، لأنني تمرغْتُ على غير عادتي، مكسور الود، منثني الحيلةِ، وكان الثلج نديمي، حينما انقـذفتْ زجاجـةٌ محكمـةُ الإغلاق، كالتي يستوردها عمنا لخمارتِهِ، لم أكـن منتبهـاً الإستفاقة من الغيبوبةِ تلك حدثني عن ذلك رجلُ " المليتّسا " سرغي وهذا السرغي لا أعرفه لكنه داهم شقّةً إلى جوارنـا، نسي فيها جواز سفرٍ ... عليه صورةُ كلبهِ المدلّلِ، وددتُ لو أسألُ عن الذي وضع للكلابِ اسماً من عندِنا.. قبلَ أن أتبين صاحب الإسم واكتشافي بأنه لا يشبهنا .

روى لي أيضاً، أنه رأى جمعاً في خمارةٍ، يتسـاوى فيها مدمنو الكحول والمثقفون والزعران، كانوا مخمـورين على شرفِ كتابٍ. وحصلَ أيضاً، حينمـا خرجنـا أربعـةَ مترنحين، وأنا الأول صحواً بينهم ... لم يكن سارد الثمالـةَ معنَا، وليس ثمةَ ما يوحي بوجود نقيضِهِ المتأخر عن متعةِ الفوضى..و للدقةِ أكثر، لم نكن بتلك الخمارةِ، وحقيقةُ أمري أن أذُنُي اليمنى.. تورمتْ من صوتٍ كـاد يطـالُ عنقـي. هاتفَني باسمِ النمل، لألم صوتَه من أطرافِ ديـكِ المحـدي،

وأن أكتب إليهِ تقريراً مفصلاً عن الدول الفتيةِ، ثم قـالَ :- وقالَ ما لا أتذكره عبر سماعةِ هاتفٍ، ثم سحب روحي ولـم يتركْني أتبوأُ حرفَ العلةِ إن شيخاً تلمذَ على يديـهِ مبـدعاً. المبدع متهم بالإرتدادِ عن تعاليمِ تربهِ.. وحصـلَ أن يصـفَه شيخنا بمالم يفعله قواد، ثم أكد علاقتَه بأولادِ عمومتنا الجدد، فهم تركوا لنا البطيخَ وكروم العنبِ والزعتر، والإبلَ التـي وصفتَها للسوريالي ذاك، دعاني مهاتفي إلى عقدِ قرانهِ علـى كتابٍ حـداثوي، تتمايـلُ علـى شـرفهِ الحكومـةُ وبنـتُ المحافظِ...ان يحسد ممثلَنا الدائم في الـ UN, سائلاً : إن كان يبصرنا من قبوهِ العالي، وهل ما زالَ ينسـفُ خطـاه متخبطاً ببصيرتِهِ وأولادِ عمومتنا من أعـالي " الأمبيـر ستايت " مشيراً إلى الدال وحروفِ التوبـةِ وجفـافِ حلقـي والشغبِ الذي سيأكلُني، ناسياً مدلوله في بيتِ الطاعةِ، علـى راحةِ قلبي. حلفني أن أسألَ الصعلوك المجملَ بالخطيئةِ، إن صار مديراً للبدوِ الظاعنين في الكتابةِ، أم أنه غرقَ بأوهـامِ البحثِ عن معنى . (. . .)

ثم أستأنفَ الحداثةُ يا أخي... يا أخي الحداثـةُ هـل تسمعني ؟ وأنا لا حولَ ولا قوةَ لي . . .الحداثةُ في الغربِ

يا أخي... كانتْ "فوكنر، جويس، بول سيلان، إليوت، شيلر، غوته، لكنها أيضاً كانت سؤالاً، من ديكارت، روسو، هيغل، نيتشه، فرويد، هيدغر، ماركس، فوكـو، سـارتر، دريـدا، بارت، كريستيفا، هابرماز ."وانقطع الخط . . .بعد أقل من لحظةٍ يسألُ : فاتورةُ الحسابِ من يدفعها يا أخي ؟ الخيبةُ ليستْ بهِ، إنما بذلك الرأسِ . . .

روى كل ذلك قُبيلَ وصولي إلى قارةِ الـثلجِ هـذهِ، حيثُ لا شيىء غير نساءٍ للتحفةِ والزينـةِ يشـحذن رحمـةً ترنحين -مثلنا هناك-

لم يكن الهاتفُ يعملُ.. لكني أجزم بأنـه حـدثني... دثني بقوةٍ، وأذني للآن متورمةٌ بعد : حسستُ قلبي، علبةَ لحبوبٍ، الوسادةَ البعيدةَ، أدركتُ حينها مآرب حلمي . .

تمنيتُ لو يسعفنُي كلامي الزائد بعد أن تحدثتُ مـع حدِ المجانين، كي لا تصلُني لائحةٌ بأرقامٍ أجهلُهـا... وأنـا طبعي كسولٌ بـدروسِ الحسـابِ . . . أرفقـتُ الفـاتورةَ بمخطوطٍ أرسلته دون عنوانٍ، وإذاْ بصوتٍ أجشَ يهـاتفني سائلاً فيما لو ستلمتُ كتابه "رأس المال "

تذكرتُ حينها الذي روى في مسردٍ يشـبه إنجيـلَ مارقٍ نسل من شرودٍ، ذكر صحيفةً كتبتْ عنه بلغةٍ ليسـتْ من عندِنا، بأنه، السارد، الحكاء، المهموم، إنـه الفـاتح، وكلام اللهِ أقل منه . . .

صور هذا المشهد ديبلوماسيٌ من بـرج المـر . . . يا مرارةَ الجرافةِ في الوسطِ التجاري، كانتْ مصفحةً بحجـمِ بنايةِ " الصيادِ" تحرس المر ذاك، عند زقاقِ الـبلاطِ وحـي الغيلاني، أعني حارةَ حريك والعنتبلي، ليس بـالقربِ مـن وادي أبو جميل، تحديداً عند حديقةِ الصنايعِ، علـى حـائطِ وزارةِ السياحةِ ملصقاتٌ تمجد كل شيءٍ وتنسى رئيس الدولةِ والحكومةَ الواقفـةَ بكـل قواهـا علـى أكتـافِ غيمـةٍ . ألاّ تغضبكم الصراحةُ المغرضةُ، إن سألتُ جمعاً لم يخـرج من هوةِ غيرهِ، وألاّ يقرأَ أحدكم ما لم تخطه يـداه. وحبـر التوبةِ عن ندمٍ وافتتانٍ بالحب وعصيانٍ لما لستُ أدري . . . قد تنكتب روحه في ذاكرةٍ ليستْ إلى جوارِ غيره من سـادةٍ يكتبون بكل صدقٍ [نصوص البارحةِ] وبصـراحةٍ أكثـر، الكتابةُ في لحظتي هذهِ تفك الرغبةَ وتهدم كل حيلي [. . .] تؤلمني الفراشةُ المحلقةُ في قرطاج، الواشيةٌ دونمـا درايـةٍ

عن مآرب، كانتْ تعرفُ صوتي، لكنها لا تذكر حواري مع تنبلَ داخلَ كأسٍ يتمسرح في بناءِ إذاعةٍ.. مع ذلك أشتاقُ إلى عمكم أندريه وإلى الحبرِ الذي يستورده لأجلنا، لكني أتقاص داخــلَ قنينـــةٍ وروحـــي تتســاقُ جــدران الهيكـــل . والآن ؟...

أطلقتُ إيماني بهذِهِ الكتابةِ التي لا تُجدي نفعاً، لطالما هجرتْنا الرغبةُ، وثمةَ بعد لن يصله أحد ولو كثر الطبالون قبالةَ المعنى . . .

هلْ أسرد عليكم حين كاتبني محـازب ؟ أذكرنـي قترحاً عليهِ أحد أمرين، وكان جوابه أسرع من لثغ نطقهِ عبر صيدةٍ ثير الريبةَ والفتنةَ وخصلَ قومٍ خجولين . . .كان بودهِ وأد قادتهِ . صاحبي لم يكن ثملاً . .لكنّـه يشـبه جـذور سنديانةٍ، يعدلُ دوزانه ثم يتمذيع... حزيناً كنتُ وقتها.. لأنّه ظن أنني فقيه نسي مئذنته في طشقند، كان على المصلين أن يخرجوا ؛ كل على ناصيةٍ يبحثُ عن وطأةِ النـدمِ .قـد لا يرضيكم حينما أسرد قصةَ مهمشٍ . يؤرخُ ويفترض انشطار قلعةِ المعنى.. كان على الراوي ألاّ يجمع روحه على مسردِ الشطّار وقوةِ الفلسفي بشكوكِهِ المحيرةِ وألاّ يقع عـن جثتِـهِ

سهواً كي لا يقاسمنا التراب أعتب علـي حـين الكتابـةُ تؤلمني... بعد أن محوتُ ليلي، وجفتْ رئتـي.. مـع ذلـك يتذكرني مرؤوس دولي بأننا سذج معنى ولم نشـرب مـاء التوبةِ عن حيرةٍ...

قد لا يصيب عتبي، محذراً من زمنٍ ينقرض، وحيلةٍ قليلةٍ أمام وقتٍ رخوٍ.. مثلَ روحي تسرقُ نومكم، بلْ مثـلَ عقربٍ ضوءٍ كسولٍ، قد يعنيني الهارب تواً من فطنةٍ، وقـد أعني اختباراً، ومرارةَ من لا يمر بكذبةٍ مرنةٍ .

حواسي التبستْ أمام رجل " المليتّسا " لكنّه قالَ ولم أفهم " قومي يا مرى، أنا ماني جوعان حكي... أنا جوعـان من هيداك " والكتابةُ هي طبخةُ مجدرةٍ، كما يفهمها وحدثنا عنها سرغي، أن يقودك قارب صغير نحو بـلادِ السـندبادِ، معك علي بابا، ليس عتب المدامِ . "

كان الترجمان غبياً لكنّه ألمح الى اصفرار وجهي . . روتْ أُمه ولم يصدقْ، بإن الكتابةَ عصيةٌ، لا تجلب ثمن حبةِ فاليوم أو حقنةٍ تحمي من السيدا . .حبة يا جماعة ؟ حبـةُ قضامة للثاني عشر بولص، لأنّه سحب قرار الإدانة، تـرى إن لم تكن عنده تلك الحبةُ هلْ كان يتذكر؟ الكتابةُ يا الله . . .

" يا للي مخبى بعزلةٍ وندمٍ، ما عندك ولو فشةُ خلقٍ ؟! منّـا وعليك العتب "

غشني البراد حينها، أخافني، يزرب قنـاني خمـرٍ، خمر وأنبوب غازٍ بمتن حمامٍ ضـيقٍ، أيضـاً غشـني .. اغتسلتِ، وأنا أتجولُ عند المصعدِ.. المصعد يائس - قلمـا أيأس –رحتُ أتسلى بفركِ حذائي.. حذاءٍ متدني الجودةِ، ثـم إلى قناني حليبٍ، حليب طيب ولا توجـد محطـةُ أبقـارٍ... الأبقار ميتةٌ، وثمةَ أمور ضيقةٌ، مثلَ الحمـامِ ...أنتهيـتُ لتوي، الحمام يلبسني وأنا أقظم تفاحةً ... بينما أنتِ بالكادِ تمسحين وجهي .

دوخني .. لم يكن البارفان سماً، دوخني السم الذي تغتسلين بهِ، سكبتِ الماء، الماء نظيفٌ، مثلَ جلـدي.. لكـن بالوعةَ الحمامِ هي التي لا تعملُ، حمام... حمام، ولا حمامةَ هنا... حملتني بهدوءٍ دثرتني بلحـافٍ سـميكٍ مثـلَ هـذا القميص، وعندما، عندما نويتُ عليكِ، نام التختُ علينا ..

دوخني السم الذي تغتسلين بـهِ، التخـتُ نـائم .. فوقه صاحبنا زعلان، زعلان لا أكثر ..

ورثه من جدٍ، زعلانٍ ويندب حظـه، كـان ينـوي عرضه بمتحفٍ .

نحن الآن تحته، أتحاور وكلي أمـلٌ ألاّ يسـمعني، ناقشته ببساطةِ الموقفِ، راح يلومني... لم أكن أعرفه، هو يعرفني.. لذا أجبته باستهجانٍ : عليك بأمكِ.. تقبـلَ الموقفَ ولم تكن عندي أدنى حيلةٍ... لم ينس التختَ، في كل مرةٍ يؤنبني، كلفني إصلاحه أن أدس يدكِ إلى جيبهِ لأسـدد غرامةً لا بأس بها .

رآني حماره مرةً، ومرةً كان معروضاً فـي سـوقٍ بلدةٍ إلى جانبٍ تختٍ أنيقٍ، بطلاءٍ لم يحلم بهِ مولانا . .

أحببتُ البلدةَ، لكنني لم أستسغْ ذلك المعتوه، الذي لا يختلفُ عن حمارهِ الأعور باختصارٍ فهو زوجكِ وعلينـا تحمله

حشاش على غير عادتهِ، أظنكِ تذكرين قصته، كثيراً ما كان يخبطُ على بابي يطلب فنجان قهوةٍ، إلى أن وافـاني ذاتَ مرةٍ بحشدٍ غفيرٍ من زملائهِ وتمركزوا عندي..

كان الجميع يطلب أن أغلي حشيشـةَ الكيـفِ مـع القهوةِ، لم أفهم . .

تولوا ذلك عني، لكنهم حطّموا الليلَ فـي منطقـةِ الدكوانةِ .

صادفني الحشد ذاته، في صباحِ يومٍ، وأنا أبحثُ عن منزلٍ . . . لم أجرب استراحةَ الفـرج [اللـوط] فرجـكِ متورم، ومثلَ الكلابِ طردتني، لم أُصغِ لسـخطكِ، وعلبـةُ شفراتٍ في معطفٍ مغسولٍ بمادةِ ال كلورفـورم، رائحتـه منعشةٌ... تعوض عن خمسةِ أقداحِ ويسكي مغشوش .

ثم صار وجهي خمارةً تزرب فاكهةً وراحةَ حلقومٍ خصصتْ لإحدى وزاراتِ الأنتيكا، في بلادٍ لا تتجاوز مدنها عشيرةً، مبسوطةً على حريرٍ هندي، استورده تجـار مـن دلهي، بختم صدقه حراس غـاني. روتْ الحكايـةَ امـرأةٌ من الأورغواي، بأن بغالاً مسفوحةً على جنبي سوقٍ، أكلـوا ما طاب لهم، وأطعموا أصحابنا جماعةَ الأنتيكا، ثم رسـموا ختماً يصلح لبلادٍ أخرى، بلادٍ تجلس بكل فخرٍ على قشـرةِ موزٍ واحدةٍ . . .

قد لا أختلفُ عن مقهى حديثِ العهدِ، يلاعب زبائنه علـــى طاولـــةٍ ويقضـــم جيـــوب آخـــرين . . ما أشبهني بسكرانٍ يلبس خوفَ امرأةٍ، لا يفصلُ بين دولـةٍ

وعمال مقهى؟!! كما أوردتُ قبلَ قليلٍ بأن شيخاً تلمذَ علـى يديهِ مبدعاً، المبدع متهم بالارتدادِ عن تعاليمِ تربهِ.. وحصلَ أن وصفَه شيخُنا بما لم يفعلْه قَواد، ثم أكد علاقتَـه بـأولادِ عمومتِنا الجدد، فهم تركوا لنا البطيخَ وكروم العنبِ والزعتر، والإبلَ التي وصفتهاُ للسوريالي ذاك، دعاني مهاتفي الى عقدِ قرانهِ على كتابٍ حداثوي، تتمايلُ على شرفهِ الحكومةُ وبنتُ المحافظِ . . .

والآن لستُ هنا في طابقٍ عالٍ، أترقب حشوداً مارةً، من بناءٍ متهدلٍ كقبقابٍ جدٍ، أرى شعوباً لا أشبهها... أضحك كمن يقسو على نفسهِ، أكتشفُ أنني لست في المرآةِ . .

مرآةٌ، قرأتُ بعينِها غريماً رأى نصه علـى شاشـةِ صحبٍ.. وبعيني التي خفّ نورها، تحسستُ نيةَ الـذي رأى حاملاً كشكولهِ إلى أقربِ مرآةٍ تتصدر إعلام البلادةِ . . .

وحين لا[. . .] حِين الكلام يفرطُ – مـا كانـتِ الغيوم هنا !

لكن، رأيته يرمقُ إلى سؤالٍ في العشق، ولـم يكـن للعشقِ أسئلةٌ ووصايا عنّا ! !

لم أجد بأساً أن يكون للأحجيةِ عراباً، لكن، عليهِ أن يشعلَ الموتَ والعزلةَ . وحين تأكلُني أصـابعي مـن رأسٍ فكرةٍ، تقطفني صياغةُ نعاسٍ قبيلَ وصول نار المعنـى . . . وأجلـس منتظـراً كـل الصـيفِ لألحـظَ مـن يقلبـه !

وددتُ لو أقرأُخاتمتي على كتابٍ يصـدره معتزلـةٌ، لكنـي أفترض مؤتمناً آخر وعليه تفسير منامي .

مفهومنا شيء آخر يا ست... يبصر لا يستهدفُ... يخمن لا يؤكد . . .خارج الزمن يا أخـي، لـذا، لا أحـد يبصرنا . .

أعني ما عنيته عن وهجِ النشوةِ، قد أتفـقُ وروايـةَ الفوضى، لكن النهار.. النهار الذي لم يفهمه صاحبي، النهار باهتٌ لأنه لا توجد على راحتهِ نجمةٌ [. . .]

الفتنةُ، أن نلحظَ الخبز حافياً، تحديداً في الطـابقِ الرابع هناك . . .

المتحولُ، أسألُ عن مبرر هذهِ المفردةِ، في حـين الثابتُ مؤبد ! تالياً، ما يرهبنا أكبر من خوف السـلطةِ، مـا يرهبنا هو نحن [. . .]

من يقلب الفصولَ يقع بأحدِها.. وحينمـا الكـلام يفرطُ زئبقُه، على الآخرِ قطافُ الحكمةِ .

على الفلسفي أن يحيرنا وألاّ يرمينا بحروفِ التوبةِ

أكره مصطلح أجيال، اقترح [ظواهر في نص الآن] في القماطِ ؛ القماطِ الذي لم يلبسِ البدلـةَ، خلـع التقـويم مساميره، ليس للضبابِ جهةٌ، ما كانتِ القبور تـتحطم ولـو كانتِ القصيدةُ بدون دبقٍ، دبقٍ أو أنها لم تورد عـن قفلِهـا شيئاً.. القفلُ يغري.. لم تكن الصحراء حديقةً. والأسنان يـا أخي.. أسنانه ميتةٌ، ورغبةٌ ضعيفةٌ، كما أن للتاريخ أكثر من شاشةٍ، أينه اللاطائفي، من جثة شارعٍ، ولمسةٍ ببعدهِ الطائفي، لطائفي شكله، عقله طائفي،

كما بدا لكم.. كأنثى التقويمِ، النسيان مشـوشٌ، ثـم ضاقتْ بهِ الهزيمةُ، تجدونه على أرضٍ تمشي، وسماءٍ تحدقُ مثلَ هواءٍ، مثلكم حبلُ السرةِ على خشبةٍ، وكان لها أن تكون جثةَ حوتٍ، كي يصرح لمرةٍ بأنّه لـيس بـأخرس، الفتنـةُ قليلةٌ... نارها، نارها، أينها تلك النار ؟ مكسواً بزجاجٍ ولماذا البحةُ يا غشاشُ ؟ في حين القلعةُ بلا أيامٍ لنـرى متفاصـحاً يسألُ إن كان الفعلُ مشبهاً أم أننا به أشباه، فهو علـى أقـل

تقديرٍ حملَ البحر ونسي مراكبه تتهدم .. ولو كانت الجثةُ بلا أبٍ، لكان السعالُ أجملَ، ..نسي السائلُ عما يتحدثُ ولـوث روحه، كما أن الجثةَ لا تقرأُ مراكب تتجه.. حـدثتكم عـن قتلٍ.. بأننا لا ندلُ، لكننا نتجه، نخمن، لا نؤكـد... خـارج الزمن نحن، لأنُه لا أحد يبصرنا.. هنا، "كم طايفة به البلـد عد، عد إن كنّك فيك تعد".. وسألَ صياد يلقي الشبكةَ، حمـلَ اللهُ على كتفيهِ المتراس بأكياسِ الرمل" كـان بحـاراً، فلمـا يسألُ.

سألَ بحار.. لمن أغني ؟ أجاب المشيعون، حيثُ لـم أجدهم حولي، لكنهم بحارةُ.. النعشُ زهر الرمان، حناجركم، محجوب، الأم.. هيه ه ه ه، وكان له صديقٌ من فيتنام، رجع الخيلُ والعصفور ما دله أعني السفينةَ يا أخي ممن يخـافُ عليها ؟ أمسك البدلة.. نسفَ النوتةَ، ما كانتِ الشمس تؤذن ! ما أقبلَ النوم.. المنام، المنام يا أخي المنام.. عقالاً مذهباً من آل بيتك وألاّ تتعثر دخولاً وتؤجلَ وقائع، متـذكراً مكوثَـك هناك، نعم.. بالقربِ من نحتِ الدمِ . . .حقاً إنها متعبةٌ هـذِهِ التلاقيح، لكن أحدكم يعترض مراراً وينسى بأنه حفر الضوء وترك البحر يغرقُ، روحه ملوثةٌ ولا جثةً خارج الـزمن..

مادلّني أخرس حوتٍ يبتلع هذهِ الخردةَ هذا الكلام النـاقص..
أينكم مثله ؟ أين هم ؟ ما بنا والجمع ليس إلا شوارد يتامى..
يتامى والعزلةُ ترملتْ العصافير ما زالتْ تلثغُ بالسـماءِ . .
السماءِ لا تلثغُ بشيءٍ .، آلُ هذهِ الخردةِ غيروا تلك البدلـةَ،
ولكم إن شئتم كل المنام

روت أمه ولم يصدقْ، بأن الكلام، الكلام مضـمد،
أبوه مسكين لم يلعقِ البكارةَ، كاملُ الرغبةِ والحيلةِ.. مضمد
أبوه والحيلةُ قليلةٌ . .

وبعـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ــ د !

لـم تعجبنـي الطـائرةُ وهـي تحـط متـأخرةً عنـي
لكن، يريحني عزفُ الكشافةِ لأناشيد، قبيلَ هبـوطي حـاملاً
درعـ ـاً وأوسـ ـمةَ وصـ ـولي التـ ـي هـ ـوت..
بالطّبول، والصناجاتِ المعدنيةِ أعدوا خاتمـةً.. لـم يقبلـوا
اعتذاري المتأخر كان علي عتب وكلام حيرةٍ وعزائي كـل
ما أملك .

أتقدم على مهلٍ، جدار وثمةَ تمثالٌ يسـوي قامتـه،
حربةٌ محنيةٌ على رأسِ جدي .تقودني قدماي الى الـداخل،

يبدو المكان مثلَ مختبرٍ لرجالاتِ السياسةِ، في غرفةٍ زجاجيةٍ أبصرتُه، رحتُ أمحصه بدقةٍ!

لم أفهم شكلَه المائلَ الى الشحوبِ، نهرني زائر كي أقفَ بخشوعٍ، ما إن فعلتُ حتى تَوارى، ولم يلحظْ إمرتَـه.

لا أحد سواي، رحتُ ألوم ذا الوجهِ الشاحبِ، اُقبـلُ جـدراناً ملساء، كان يصغي إلي، حدثته عن شؤوني، ونسيتُ ميراثَ الحب بدفترٍ أضعه في جيبي الخلفي، لم تكن رغبتي بالحديثِ عن الفقدان، ولم يكن الوقتُ محسوباً علي، لذا، أخبرته عـن كل مناماتي.

لستُ على درايةٍ بي، قد أسحب صوتي وأدخلُه قاْعةَ النسيان، أنساني في حضرتي، أترصد افتراضاً، لا أذوب في شهوةٍ تفترسني، سيكون كلانا في انتظارٍ.

لم نقرصِ الوقتَ كي يتوقفَ، وحدثَ ما كان قـد لا يحدثْ، لم تكن غايةٌ تصبو إلينا، لسـتُ كـأي بـلادٍ تـدمر ملائكتَها لم تكن التحفةُ الملقاةُ في عربةٍ تقفُ هناك.. العربةُ تقودنا، والريبةُ فينا، لم نحصلْ على ندمٍ نذوب فـي ذروتـهِ المجيدةِ. هذا وعلّمني الخريفُ ما علّمني الندم كي أمضي. قدماي في سوقٍ يرتاده قادةٌ ومفكرون، أشير باتجـاهٍ مـا:

هؤلاءِ مسؤولون عن خرابِ الدنيا لكـن لا أحـد هنـاك!
أجلْ إنهم في الجهةِ الأخرى من العالمِ.

جعلني الخريفُ كواكب تدور حولي، ستكون أحوالي والتركةُ ميراثُ التوبةِ في حجرتي، دخلتُ نـدمي ...نـدم في حياةٍ غير مدمرةٍ، قد ينسيني مـا لـيس علـي، أعـيشُ فحسبتني واللهُ فوقَ الغيمِ.

من ينسيني ندمي؟

أنا الآن في انتظاري، تقودني امرأةٌ إلى صوتي، لم يكن صوتي ممدداً كما حسبته - امرأةٌ تقوده إلـى الصـوتِ الذي أسره – تقودني وما من جدارٍ لأقبله، الصوتُ الـذي أسرتُه لأقبلَ جدار الغيمِ، أطلقتُ النوم فيمـا مضـى، فمـا حييتُ، أحيلني إليها ولا أجدني!

أسمع كلاماً ينقصه اللثغُ، وحلقي جافٌ جافٌ.. طبقُ الدار خالٍ مني، صوتي يفر، لستُ أفهمني، ليس لـي غيـر ليلةٍ تحملني الشقاء.

لن أغفر تاريخي المبهم، متراكمـاً فـي حضـنِها واسمها يخط كلامي، أنفخُ بالحبر مراراً، تبدو بيوتُ الطين،

المدن الوهميةُ، ومصاطب القرى، لئلا يصادفني وأنا أعرفُ كثيراتٍ، غير أنني ما لمحت دومينارد وما نادتني أمي ! !

أتوقفُ عند قدمين مباركتين ولم أعرفِ المكوثَ مثلَ سماءِ اللهِ، دفعةٌ واحدةٌ من الضبابِ، غيمةٌ واحدةٌ تحاصـر العباد. مخذولٌ هذهِ اللحظةَ، من أمهِ تلك، من لمسِ قديسةٍ لم تكن" مدام .." تبعثُ بكارتَها برسالةٍ مستعجلةٍ وتنسى بـأنني ساعي بريدٍ جبان .

روتْ أمه ولم يصدقْ بأن الكـلام عصـي علينـا ومسموح "الحكي للخرسان" ظالم أبوه.. لم يلثغْ باسمِها .

روتْ بأنّها مثلكُم "جمهوريةٌ" تخرج عـن معنـى . مخذول هذه اللحظةَ، من أمهِ تلك، من لمسِ قديسةٍ لم تكـن "مدام"، قلتُ هذا قبلَ أيامٍ، قبلَ أن تحذفه أمكم، بعدما نسيتُ أصابعي في رسالِتها . كانوا ومضوا عجالةً، مثل دقاتِ قلبي، مثلَ فتى بالكادِ يعمى، وملك من لا يفقد بصيرتَه، وألاّ يكون أعمـــى عـــن خديعـــةٍ يقـــدمها عـــراب متأصـــلٌ . قد لا يرضي فضولَكم هذا الرثاء، كما أنه لم يحدثْ قـبلاً أن يقرأ أحدكم كلام صديقٍ جف موتُه، لكنّي أتـذكّر.. أربعـةَ مترنحين، نواحاً وحشد ظلالٍ شاردةٍ أحدها قبـالتي، قـرب

شارةِ مرورٍ معطلةٍ، تماماً مثلَ نهاري وراحةَ الفجرِ هنا، بلْ كمن يثير فزعاً ويركض قدامنا هناك وهو على أتم اللباقـةِ، يحاولُ تعطيلَ خطانا، كانت بصيرتُنا ملبيةً إمرته، لم يتـرك غيمةً، لم تكن الرغبةُ متيبسةً، لذا كان الهواء منسحباً حدثني دونما مالٍ، بعث نداءه عبر بلادٍ لا يصلُها أحد . ممكن أيضاً بأنني نسيتُ الظهر يعد نجومه، غدتِ الصورةُ مبهمـةً ولـم ألحظِ الليلَ والظهر صحبةً يا الله ؟! أعتقد بـأنني ضـيعتُ الفكرةَ والحيلةَ والمنام، وروحي الأخيرةِ . قد تسـركُم هـدأةُ صوتي وعطلةُ عمري، لكني أتذكر : وهو على أتم اللباقـةِ، يحاولُ خطاَنا، كانتْ إمرتُه وبصيرتُنا ملبيةً، محترمين قلقـه مع أننا لم ندرِ حينها عن لباقةِ السلوكِ شيئاً [ذكّر، مترنحين كنا] قالَ:

حضرني كلام.. ثم ضحك بقوةٍ الذي عاتَبه مـردداً عن سيرةِ كتابٍ لن يقرأ، سألتَه عن حيلةٍ تبرر مرثاه، كان ينتظر بما تأمره الظلالُ، كنّا ظلالاً بعيدةً، على جدارٍ يمتلـئُ شحوباً

كنتُ الأقلَ صحواً، والأقرب كان ظلـي، همسـتُ مازحاً أحرفَه يا أخي .

لم أكن أدري عن فعلِتهِ شيئاً، لكني فهمتُ بأنه أحرقَ كل شيءٍ، حرقَ الصمتَ والأحجيةَ، والرغبةَ المتبقيةَ، ولم نعد نسمع صوتَه اللحوح، وظلالُنا ما زالتْ عالقةً بالقربِ من هناك، تحاولُ الإصغاء لكاتبٍ لم تلده أم، لتائبٍ تنصلّتْ منه خطاه.. ١٩٩٥

غومل، روسيا البيضاء

وردت مفارقات بتحديد أمكنة وكان الغـرض منهـا خدمة سياق النص. وهنا لا بد من الإشارة بأنه أبرز عناوين وهمس الى أخرى وفق ما تمليه راحة العزلة، كمـا أنـه لا يرمي بذاكرته غير معتزلة، حيث لا يحصـد سـوى نـاراً تؤججها مدافن، مسردها وتاريخ بدئها بحجم الذي لم يذكر..

خدر السهو

كتلُ هواءٍ حولي، علـى ذاتِ المسـاحةِ ترفعنـي حمالاتٌ متثائبةٌ، كما يدي المتورمةُ ووجهي المصفوع بحجر عبارةٍ .

منذُ عصورٍ وأنا أسوي هيئتي، أخلع أنوجادي مـن رحمِ هواءٍ معابٍ، ثم أخمن مازحاً مع الذي وضع الرسم منذُ قليلٍ، لكنه صدقَ فكرتي بمهارةٍ وحيلةِ ثعابٍ أصيلٍ.

-مثـ ـلَ بـ ـوابِ عمـ ـارةٍ معدمـ ـةٍ، راقصةُ الباليه بخدرها، وعضلةُ الممسكِ أقرب إلـى بنـاءٍ واهمٍ، بينما أطلب أن تبعد الورقةَ عن وجهها لتضع مـرآةً تقابلُها، ثم توازي المستطيلَ واللوحةَ ذاتَ الوجهِ المصـفوع والحمالاتِ المنهكة كان ذلك كي تقرأني، كما أفعلُ الآن وما سأكتبه مرسوماً على قفا هذهِ الصفحةِ، حينها ستعرفُ بأن ما عنيتَه ليس المعنى تماماً، وربما لم يكـن عنهـا لأن خـدر أصابعي جعلَ فمي مقطباً، لذا، سأترك الورقةَ كلها .

أحسبني فهمتُ لماذا قطعتُ خدر الماءِ عندما وقـع نظري من أعلى السرةِ، لكن ثمةَ صورةٌ في حجرتِها تتأملُني بدقّة أكثرٍ مما طلبتَه لقراءةِ حروفي بواسطةِ علبةِ مكياجٍ .كان عليها أن توازي حركةَ المرآةِ بمرونةٍ، على عكس ما شدني إليها، فهي لم تنشغلْ بخدر السهو، لأنني رأَيتُ جثثَ حروفي مقطعةً، لكنها ما زالتْ تلثغُ أقلَ مما ترغبه، لذا، أجدني أكثر

رهبةً مما كنتُ عليهِ حينما خلعتْ ثيابها وهرتْ عيوني مـن اللوحة.

ما أغرب المستطيلَ حينما تكسر بأول مـن لمحـةِ بصرٍ !! مع ذلك أعاد صديقي ترميمه، لكن في هذهِ المرةِ لم يرسمني، أعتقد بأنه صفع وجهه بقرميدٍ مسلحٍ بدلاً منـي، ثم وضع شاربيهِ على صفائح هواء فر مـن ذاتِ العلـبِ، وعلّقَ النعاس على كتفي، لكنه اضطرب عندما حدثته عـن أمكنةٍ تحبلُ بخدرِ الوقتِ. مع أنه حذرني ألاّ أتمادى، لأننـي صغتُ شكلاً يبين ذاتَ الخدرِ، لكن الجبالَ خلافـاً لشـكلِها، فهي تنخفض بي على أقل من حيلةِ ثعابٍ خجولٍ [...]

المستطيلُ مرةً أخرى، أتوسد أضلاعه المتكسـرةَ، تؤلمني أضلاعه المرمدةُ، وأنا غربالٌ يتشبه بقوةٍ.

حينها فهمتُ سر خوفي من نباهةِ الغيومِ التي تخفيها امرأةُ الباليه تحتَ سرتها فوراً. نبهني المثلثُ بأنـه يحتـوي على ماءِ حياةٍ، ومن المفترضِ أن أكون ممـدداً علـى ذاتِ الشكل، لكنني سأحاولُ النوم خلافاً لما رسمه السوريالي منذُ أيامٍ، فليس لي مع الماءِ غير الجفافِ، إلا القليلَ القليـلَ مـن الخدرِ، لذا، سأهرب مني وأضع فاصلةً تحدد قدرتي، ربمـا

أنتهي عندما تفسرني حروفي، وقبلَ أن أتكسر، فـي حـين غفوةٍ ثمةَ خوفٌ يرجئُ كل شيءٍ وصواب في ندمٍ أخمنه .

لكن، تؤلمني أحشائي المتآكلةُ، وشكلُ الأضـلاع لا يليقُ بمـا فينـا مـن رحابـةٍ، كمـا أن العـالم ضـيقٌ، فهو لا يسع ملائكةَ لغةٍ وزئبقٍ!

وحدهم شهداء وقديسون منذُ ألفي عـامٍ، يفككـون الزمن، ومعهم أمسك جسد النار .

عندما نزلوا محملين بالهراواتِ والخطو السريع، مثلَ رجال كوماندوس فتشوا الوقتَ والقصائد وموجةَ الإذاعةِ ثـم ضربوا الهواء والوقتَ المتهدم، ضربوه، كما لو أنه أنا، ثـم أخذوا شكلي الذي ما زالَ يتأملُ حجر عبادةٍ وفراغاً متيبسـاً على شفتي، تماماً، كما لو أنني أضرب جسد اللوحةِ بالسكين، وأهوي في الثالثةِ إلاّ ربعاً، في الخامسةِ والستين بعدما لمستُ عقدي الأخير.

استامبول ١٩٩٥

ذبول

قفا ناصع، وغيرةُ مقودٍ لطابورٍ أفلس مـن ورقـةٍ مرميةٍ .

أنّب غيري . . .

ثم وضع نقاطاً ترمقُ خلسةً، تشير كما لو أنها بي، انكتبتْ عني، وما أجهلُه على مرمى كتلةٍ تنبهنـي، تمسـح صوتاً ناعساً مثلَ جهازٍ يستخبر. كمن يصد غيمةٍ، أحـاولُ رصد جثةٍ تعترم فوق انحناءِ جثة، مركزها رأس غيري . . .

كان زئبقاً عصي اللمسِ، هو الذي كتب، أنّبني وأشار كما لو أنه بي، وأنني هو، لثغَ ما كان بظني وما سوفَ أكتبه على ورقةٍ مستقلةٍ، تماماً كما هذهِ اللحظة .

عندما توضع نقطةٌ وتكمن للذي يـؤنبني بينمـا لا يبصر خربةً أحدثَها غيره خلسةً، حين لا ينتهي عند انحنـاءٍ، يضاهي ورقةً تبدو لمن لا يدرك بأنها لوثةٌ، لوثة الذي يفقـه ولا ينتشي، على عجلٍ يهذب ورقةً، يمرر عليها إبهامه، ذلك الذي مسح الحبر قُبيلَ مكالمةٍ تستحضر رغبةً . .

كمن لا يكتفي بأخرى، انتظر نفساً أخيراً، مكان ينام مبتلاً بكتلةٍ تتهدم كلما أدرك ما أجهلُه عني . .

نقطة . . .

أكبر مما رسمه حبر جف، لوثةٌ ما ينوجد غفلـةً، وتتحفُ لغةً تفرطُ زئبقَها، لغة ولا أحد يرتمي على جثّةِ ورقٍ

مكومٍ.. أيضاً هذي روحي على زمنٍ قصيرٍ، علـى حيـاةٍ تبرر ما سوفَ ينكتب، عن وتدٍ عاقبـتُ غيرتَـه، وآخيـتُ غيره، لأنني - لا يترك خلوةً عسكر ينسى حراسةً ويتنـزه بفاكهةِ نومٍ قليلٍ. هو الذي لا يصلُني بأحدٍ، أناور على فطنةِ حروفٍ أكتشفُ مرارةَ من لا يمر بها، يوازي الذي ينسـى حراسةً ويتلذذُ بفاكهةِ نومٍ ولم يصلْ .

من يحتمِلُ انكتاباً على قفا ناصع العزلةِ وروحـه جفتْ، من يكون مقوداً لطابورٍ أفلس ذخيرةَ نسوةٍ ندبن حيرةَ نهرٍ نحيلٍ ، مثلي أيضاً، على جثةٍ من ترابٍ، غيـر الـذي وضعتْه أم بمشفى أصيلٍ، لم تدخله امرأةٌ إلاّ وفكوا رغْبتَها . حيثُ الأزواج في ملهى يتلاذذون بما تبعثُه عيادةٌ، قرب نساءٍ يلادن بأحضان أمهاتِ الصدفِ .

لم يخرج الجميع حفاةً، لكنهم مشَوا دون توقفٍ على ترابٍ غير خجولٍ. للغربان أيضاً ما ينوجد على تلك الجثـةِ، غربان صامته، على اعمدةِ نورٍ مطفأْ، أبسملُ وإذ بصـوتي ينعب، مسني ذهولُهن، غربان... غربان.. لكني للتو أنهـي صعوداً إلى حفرةٍ، والدقةُ أن تحدد ما ترتب من صمتٍ على

غرار لغةٍ خسرتْ غيرك، عند مساربٍ تنفر هواء، وغربانـاً تُبصر زولاً من أعلى..

ليس بي ما عهدتَ عني، شهدتُ عروةَ فخٍ لا يفضيهِ وتد، كأنني.. لكنَنا... من حياةٍ مدمرةٍ إلى مساربِ لغةٍ تفـك زئبقَها، تشاطر أقاليم وما بنا غيرها .

موسكو ١٩٩٥

صغائر كان الذي امتشقَ الزهرةَ، تمنى وما ارتوى، لن نغفر إذْ عاشر النسيان... نلومه بقسوةٍ، صادر الأحزان وسحب الأغاني إلى الكرنفال. تناسى ربنا القلم، حين تعـالى شموخاً، وانهالَ بالإستجوابِ .

ما سجدتْ حروفُنا، وما كانَت ميتتُنا المختارةُ.. لـم ندرك مقابر الكون، مقابر تُحرس، لها أَصحاب، يحاسـبوننَا على تحيةِ الصباحِ ونشيدِ بلادِكم الذي لم يتـلَ، هـي ميتـةٌ أخرى، تسحبنا حيثُ هو الأعلى، تجعلُنا سعداء كلما دخلْنـا التيه . ووقتَ أتتنا الأشياء متبرجةً، كنا لها نداً . . .

لم نبدأْ كوعولٍ رفقاء أحبابٍ، بلْ أضحتْ خطواتُنـا المغتالةَ، دون جمهرةٍ مكللةً... ولو كانتْ القدرةُ فارقتنا ؟ كنا

حجراً، ينهمر فوقَ رؤوسنا،.. وحين قالوا : ماتَ ربنا، مـا بكينا، لكنما تُهنا، وكان نحرنا.. ما بكتِ .

الجدران.. انهدر كلام لم يكتب.. صلبنا على مهبلٍ مثلَ عودٍ ثقابٍ . .

قليلاً من الطلاءِ، كي تدهن ما رسمته عـن إنسـان الزمن الآتي وكوكبةِ النساءِ، تضع لوحتك المؤطرةَ بالشعاعِ، تكتب إلهاً بأنموذجٍ حديثٍ، باركـاً فـي وحدتـهِ، منـدثراً، حوله ثلةٌ من الكوابيسِ وسوء الأحوال.. لم تكن امرأته شقيةَ الوجدِ، عيناها متلهفتان.. دونما رصدٍ وتداركٍ أسراره، كان باسترسالٍ مهيبٍ شاكياً طوالَ الوقتِ، كأنما المعني [هو الذي أنا] أهمله . . .

دعوتُ الناس مراراً، من مئذنةِ الصوفي، وهو يؤكد لك "حي على الصلاةِ" وأنتَ تحور كلام اللهِ...

سجلتُ تسـابيحك علـى ذاتِ الجـدران، سـحبتُ صلواتك، نسجتُ الحلم وأفزعتُ النهار، .

بعد عقدين ستأتي، كي تمسح جبينك وتغفو، ثم تبادلك حـواراً مؤنسـاً، لتـذهب الـى أفـقٍ يتمحصـك . وتتمنى لك بأن تُشفى . .

منغرقٌ بأزماتٍ عارمةٍ، تجتـاح مـدنك الوهميـةَ، ورياحٍ.. رياحٍ تكاد تقتلع أظـافرهم، مـوتٌ لا يـأتي إلا بالأعيادِ، فهللووووا... وبكوا علينا.. لأننا ماجثونـا هكـذا، تحتَ مراسمِ ممالكنا.. هذي جراحنا فاغرةٌ، وسياطٌ تؤازرنا، هذي أقلامنا... حياتُنا.. هذي قلوبنا المعطلةُ. فها قد مت يـا ربنا . . .يا من صاب الزمن على عنقه، ورفع راياتِهِ، إلـى أعلى صهوةٍ، صوب قنابله المعطرةَ علينا . . . جعلـتْ مـن الطيور جيشَها، كي تحرس قمرها الحـزين، أنـتَ الكـائن البليد، القدرةُ التي غادرتْ أصلَها، كشفتَ نفسك بزمنٍ مقطعٍ، زمنٍ ما ملكتَ بهِ سوى الكلامِ ؛ الكلامِ الذي داخَ من أحاديثنا المكررةِ باتَ يكره طبيعةَ توزيعنا له.. وبعد ذلك كيفَ أحوالُه ستكون ؟

محرج، ولست بمجيبٍ.

ثمةَ مسافةٌ بين أقاصيك والجنوبِ . . .

لستَ إلا منتظراً.. كأنما التسـابيح علـى بابـك . . فلا شجرتي الزنزلخت ولا الكينةَ الباسقةَ تكفي كي تسـكب روحك فهي في نبضٍ مسبقٍ مع الفلةِ، هيأتَ حليها وزينتَهـا القليلةَ، ستكون بانتظارك، كن أبلهاً.. واجعلْ مـن صـدرِها

قلادةً، ومن عينيها مرآتك، ارسم هاجسك الأغبر حصـاناً وشوارع خاويةً تذكّر حصارك الأزرقَ، وشاحك الملكوتي، وزيك المطرز بعشرين نيزكاً، نيازك مربوطةً على قرنـي ثورٍ، ونصفاً آخر من الشموع التي انطفأتْ، فوقَ جثمـان المملكةِ، فها أنتَ ترفعها، ليرتقي صداك نشـيد الممالـكِ، الأيقونةَ الأبديةَ، الحاضرةَ في كل رسولٍ فينا. أنـتَ وسـام مملكتنا، قلبك الزنبقُ، الجوري، ورقصةُ الأبلهِ في عرسـك الأبهى، شموع لك وبخور، فهاتوا، هاتوا لقديسنا الشموع .

حين وبختك أمك، حين غضبتَ، نعـرفُ سـيرتك، هربتَ إلى حديقةٍ، اعتليتَ شجيراتِها، تلصصـتَ بنظراتـك الثابتةِ إلى أعشاشِ الدوري.. رحتَ تفصفص ثمار السـرو، وتبصقه، على تلك الحالةِ بقيتَ، صعدتَ دراجةً.. ذهبتَ بولهٍ الى المنعطفِ، واختبأتَ، خشيةَ أن تراك أمك، لكـن أبـاك اعتاد مكرك.. وتغافلك عن دروسٍ، تكتب مذكراتٍ على دفتر وظائفك، مع ذلك يسألك.

يذكر لك قصةَ الرسول، حين أتاه وحي ملاكٍ أمـره بأن يقرأ تخافُ من بقيةِ الحديثِ وتنام.. تسمع كلاماً يعنيـك لا تفتح عينيك الذابلتين. تنفرج أذنـاك. يقتـرب الصـوتُ،

تتغافلُ أسماعك له.. لكن الأهازيج والطبولَ ووقـع أقـدامِ الدبيكةِ المهرةِ تخترقُ حاجزك فتنهض. تتكـاثر الخيبـاتُ أمامك.. فلا نوم يؤويك.. ولا دروس تحفظُها، أو صديقاً في سنكِ.. جميعهم يكبرونَك، تستمع اليهم فتكون وديعاً، تُسـمع ما كتمته للذين يصغرونك، تطلب أن يثابروا، ليكونوا مثلك.. وخوفاً.. خوفاً بألا تتزعمهم بألعابك الشقيةِ، يصغون إليك.. يحفظون نصائحك.. بينما أنتَ تحتاج نصيحةً .

تغنج صغيرتك، تلوي بوزها.. تظنها تهواك، لكنهـا من شدةِ الخوفِ ارتعدتْ. فسبحان من جعلك تدافع عن حـق العبادِ، وأنت طفلٌ، تراهـقُ بتسـلطك، غـدوتَ ضـجيجاً وتواريتَ.. ما خلفتَ سوى الغبـار.. الغبـار الـذي مـلأ السجلاتِ.. شغلتَ الدوائر، بحثتَ عن ذاتك،

جعلتَ من إبهامِك بصمةً ناقصةً، بعد أن قطعتـه ... أمسكتَ النصفَ الآخر وتأملتَه بذاتِ الولهِ، فما بكيتَ. بينمـا الألم يوخزك، ذهبتَ لتجالس الحسناء، لتحـدثَها... شـطبتَ الفراغَ المتدلي، فراغٌ يداهمك ...تمحصتَ طـويلاً صـوب أراجيح.. غير التي لم تركبها، أطلقتَ قصائدك على كوكـبٍ

انفصلَ، وسار بمدارٍ مزدحمٍ، بزمنٍ متقلبٍ، طقـس أهـوج، يحملُ أرواحاً ببوتقةٍ منتظمةٍ..

ستغدو كتلاً منكمشة، تسير بمدارٍ أوحـد، تعـاكس المجراتِ.. واختراقاً اخترقتَ ثغراتِ الأوزون، فيا من اختار قبرها مأوى له.. نجدك تراجع دفترك السري، لم ترِ عليـهِ سوى بصماتٍ وهميةً، بصماتِ شخصٍ يدعى الظل، الظـل الذي يشبهك، يذكرني بصفاتِ من أحبه الله إليه ... تعـد ترسانتك، فوقَ مدارِ المحطات، خارجاً عنها ... تشتد.. كما تعلو نسب الإطلاقِ، تطلقُ عينيك الاثنتين، لتشخص صور محبيك، تسمع صفير الخريفِ، الخريفِ الذي قطفَ ثمارك، على مسرحٍ لم تحضره.. كنتَ بهِ. الكل رآك، مثـلَ ظلـك المنهوبِ، مثلَ زيك المبرقعِ بالرسـومِ والكلمـاتِ، كلمـاتٍ ترتجيها من أفواهٍ (...) بينما عينان واسعتان تطوقانك، وأنتَ بأسوأ الأحوال... عينان مستسلمتان للحزن ولـك، يـا مـن صارع أضاريح الوثنيةِ، غلبتَ الشعاراتِ ورفعتَهـا بـنفس الغضبِ، غضبِ الوالدين عليك، غضبِك أنتَ على العبـادِ، وتعود ؟ لِم عدتَ ؟. تسترقُ أجوبةً من عينيها المتطلعتـين. لأنك فعلْتَ ما لم يفعلْه الندم، لم تشرح غيرتك، كنتَ حملاً . .

حملاً يتمرأى على جسدٍ يكفر، تخافُ عليك.. تبحر كجـذعٍ أعوجٍ، فاسقِها دمك المحبب،.. اسقِها الضامر في عضـوِك، لسوفَ تقرأُ شهوتك.. وتسحب كلَ ما ينتمي للكتابةِ... هـي تخربشُ جيئةً وذهاباً، على دفتـر الاحصـاءِ، تنتظـر مـا ستقولُه، . . .تتبعثر الفرحةُ وتنسى الذي دهـاك... ترسـم رفضها قطعةً قطعةً .

أنتَ الذي يزعجه إبهامه، تحاولُ دونمـا جـدوى أن تنام تصحو لتلبي رغبةَ حضرتِهِ فيكون مسروراً مثلـك عليك . .

مثلَ حمارٍ دلله خصمه.. مثلَ جندي واقفٍ بعرضِ الشارعِ. يطالبك أوراقاً، أوراقاً لتثبت أنك حيوان ينطقُ، لكن الوقتَ تبخّر، اجتمع الناس، تكسـوهم الدهشـةُ والحيـرةُ، وزجاجةُ نبيذٍ بيدِ المرأةِ الحبلى، المرأةِ التي اعتاتْ ضحكتُها بين الأبنيةِ المتصدعةِ وأكياسِ القمامةِ، مواء القططِ، قطـطٌ شاردةٌ وحزينةٌ... حيثُ كل شيءٍ بانتظامٍ، إلا موقفُك مع ذلك الأرعن .

تذكر صراخَكَ المبجـلَ، علـى الحشـدِ المتـدافعِ، خططتَ ليومِ موتك. قاطعتَ أحاديثَ صحبٍ.. نسبتْ أفكارهم

إليك.. راحوا يسألونَك، كنتَ أكثرهم ثرثرةً، اتفقْتُم على حالةٍ اشرأبتْ بمفاصِلنا... غدتْ الحياةُ سدى.. فلا تريثَ يحـد من خرابِها ولا فوضى تضبطُها.. كنتم عاجزين عـن فـكِ طلاسِمِها، ما ندمتم... أوقفكم صراخُ أطفالٍ، كبيرهم انتحب، وقلبه اضـمحل.. وقتهـا تكـرمتُم بـبعضِ المنشـوراتِ، واعترضوا عليها، بأنها مجرد أصداءٍ سـخّرتها الأنظمـةُ، فسروا بعد برهةٍ سروراً.. لكون المنشور دعاهم للاضرابِ، بعد اغتيال وجودِهم وارتقاءِ الماريشـلات، بعـد أن غـدا الصراخُ أدنى من كونشيرتو العودةِ وقفـوا بصـفٍ واحـدٍ، انفردوا بالتراتيل .

" غدا وما سوفَ يلحقُه إضراب "

الحريقُ الذي جعلوا من رمادِهِ طعامـاً.. وتقاذفَـه التجار [هاكُم أحدثَ أنواع الأغذيةِ فاشبعوا] كـان ذلـك رداً على تكاثفِ فقراءِ العالمِ، أولئك الصـعاليك أسسـوا أنديـةً ومنظماتٍ، الى أن كبرتْ أفكارهم، تراءتْ ملامح أحلامِهـم (هكذا ظنوا) وغدتْ أحزاب تنكح أحزاباً، كبر القادةُ وجروا طوابير متدافعةً من الجيوش، لكن الخيبةَ

باكتشافِهم، ثمرةَ اللهاثِ، حطتْ أجلَهم، ودفعتْ بهم الى سرابٍ لا حياةَ فيهِ . .

تبصر مصائركم.. من لغةٍ فاتنةٍ . .تـ ـذكر عجـ ـوز الثمانين، بعد إصغائِك لحكمتِهِ، لخرافاتِهِ أحياناً . .

إمسك ظلك، كرر وصفتَك، عليك بذات المرأةِ.. احكِ لها.. اكملْ دربك والبس ثوب اللهِ.. الثوب الذي يشع بالنور، تفتر عيناك، وتبقى قابعاً، تتلذذُ بموتِك.. تترقب فرص العمر ولن تأتيك، هي تكيلُ المسافةَ الأقرب.. داستْ علـ ـى الفلـ ـةِ، الفلة التي اشتد أريجها - لن تنفعك اللمحةُ – تطـ ـل إليهـ ـا بدهشةٍ.. وجدتَ لذةً أجملَ من سابقاتِ مآسيك، أبهى من حملِ بكرٍ، خبأتِ الحيلةَ، متعمداً العثراتِ التي خلّفتْها... هدئ من روعِك... لأنّها ترمقُ ما تصبو إليهِ، وأنتَ تفترشُ السماء.. يكون لديك الاستنتاج متناقضاً... تستفز فلاسفةً.. واضـ ـعي نظرياتٍ، تصحو من غفوةٍ.. وتطرد، فور محاولتِـ ـك إقنـ ـاع المرأةِ بمفاهيمِ خارجةٍ عن الضوابطِ، عـ ـن جـ ـراحِ مثلجـ ـةٍ، تتجاوز أقاليم الشعب وتقلب حديثَك [أي انك معارض على سياسةِ القبيلة]

لذا هربت منك...

وعرفوك، من توقيعِك المتعرجِ في صبوةِ الهذيان، كأي مذعورٍ يدون سيرةً .يهيم عليك المهزومون.. كرهوك .. بصقُوا على رسومِك . .قبلَ أن يلمحوا وجهك سيد الخرائبِ يده التي تمسك ريشةَ الموتيفِ، بعد أن فقد الربع الذي قذفَه، الى أبعدِ خطٍ وهمي، وبقوةٍ... مخالفاً كان وعرفَ كـ ذلك.. الكل يقبلُه في المؤتمراتِ . .لم يعد

يصلح للموتِ المفاجئ.. لأنّه ممتلئٌ بهِ.. تخطّاه .. تمادى على نفسِهِ.. هيأ عالمه المتداخلَ.. وزع صور محبيهِ على ذاتِ الجدران، الجدران التي تموضعتْ عليها هواجسه المفرطةُ.. بعد أن جفتْ غدده الدمعيةُ]غدده لم تعد تفـرز سوى الأوراقِ] حياتُه، موتُه الأولُ، معلقَةٌ بين حلمٍ وأكوامٍ مكدسةٍ من الخطايا . حملَ قوافلَ نحيبِهِ. وكان جثةً منخـورةً من التعبِ .

بيروت

هدأة الزئبق مثلُ روحِهِ، ساعةُ المتحفِ، وحزمـةُ نورٍ ماطخةٌ ثم علبةُ نومٍ هنا . الآن، بعد قليلٍ، ربما البارحةُ، بهدوءٍ فاقدٍ للوعي أقوى من السحرِ الذي يلبسنا، بتواترٍ لـم يلحظْه الزمن أدنى من الوقتِ المدجن، أعنفُ من النطـقِ -

وما برحنا بهِ - كما لو أننا ننكتب على شاكلةِ العجزِ، إذْ كان الصمتُ سلاح المعجزةِ الفضلى .

وهنا ليس تماماً حيثُ الساعةُ الناطقةُ لم تكن تعمـلُ الدماء تنفر، النوتةُ لا تصلح لنعي المغني لكنمـا الابـواقُ تهتفُ سقطَ المهرجـون الأفـذاذُ مـن صـنابير الميـاهِ . وحيدون الآن، السماء تحتَنا، تهر النجوم من قبضاتِنا وحدي أيضاً، أرتب اعوجاجي من هدبي حتـى العانـةِ لكـم أيهـا الغاوون، حيثما الآن وحيدون في الأبديةِ ؛ الزمن المسحوبِ من أعناقِنا. توافدوا ظلالاً وراء ظل، أَمسكُوا الـوهم بقـوةٍ خُذِلوا فور خروجِهم من رأسِ الإبرةِ .

لم تعد بدايةٌ ترفو، إذْ نقولُها كفشلٍ ذريعٍ ووقفةِ تـأن فور اكتشافِ خلودِنا، لسنا سوى بعض الـرازحين، نعجـن فلاذاتِنا، لكننا استعدنا المثُلَ لكونِنا لم ندون، بمشاريعٍ لم تبرح ...

الآن، أعي ما لم أنشده، أبدأني مـن تـاريخٍ آخـر لا تلمسني عنقٌ مائلةٌ، تسحرني العـادةُ والنشـوةُ الأزليـةُ كدتُ أعيد الخطوةَ من حيثُ الثوار ندبوا، كانوا يقذفون الحلم، والعيون عند العتبةِ .

لا زمن يضبطُ حزمةَ خوفٍ، بعدما وجدنا الأوراقَ مطويةً والقصائد معلقةً كمرمى. لم نكـن حزانـى، ولسـنا جبابرةً فرحين، غير أننا كلماتٌ متروكةٌ ووهم ينعـي جهـةً أخرى . . وهم يلمس أنثى اختفتْ والحكايةُ ممددةٌ على سريرٍ مكومٍ، وحين لا مكان يصلُنا حتى بهتافٍ أخرس نقضم الأيام والحيلةَ معه . .

راح يواسي جهاتٍ، ثم ترك السيرةَ ولم نشأْ سردها . حيثُ هو الآن، ترتفع المقبرةُ ولا أحد يرمي جثتَه، لم يقتنـع بزوال الظلو البقيةِ على أكتافٍ تسوقُ الجهةَ والبريةَ . سنواتٌ وعربةٌ عزلاء يحملُ نجوماً مطفأةً وتغتالُه ورقةٌ فـي مدينـةٍ تلفتُ بأنه لم يقتلْ كما أنه لم يقدم على انتحارٍ مجرد قذيفـةٍ أصابتْه لنفترض أن الأشياء الآنفةَ لم تحدثْ لكن ملعونةٌ تلك التلةُ قصفتْه . . .

لوحظتْ ورقةُ نعيهِ طائرةً، وثمةَ امرأةٌ لـم تغـادر، تلتحفُ غرفةً وهواء ناعساً، إمرأةٌ ... وهي ذاتُها فـي ليلـةٍ معطلةٍ، قرب عامٍ لن يمر بهِ أحد .

يتحـدثُ عـن خريـفٍ وينسـى حياتَـه معلبـةً، ثم جاء الخبر عبر إذاعةٍ مجهزةٍ بطـاقمٍ يرصـد ظـواهر

ونزعاتٍ، كانتْ مدافن للعزلةِ تمر بنا وهو صامتٌ عن هدأةٍ ترمينا!

من قتل الآخر، اللغةُ أم الزئبق ؟؟ لم تفلح المئذنـةُ بذكر اسمهِ كان على جرس الكنيسةِ أن تهيء عزلتَها، لم تفلح المئذنةُ.. وجرس الكنيسةِ ناعس، مثل هواءِ الغرفةِ الماطخةِ، لم تفلح المئذنةُ بذكر اسمهِ كان على جرس الكنيسةِ أن تهيء عزلتَها، لم تفلح المئذنةُ.. وجرس الكنيسةِ ناعس، مثل هواءِ الغرفةِ الماطخةِ، كما أوردتُ عن موتِكُم في هذهِ الوصيةِ .

ثمةَ نعشٌ وعلم خجولٌ، على زاويتِـهِ بقعـةُ روحٍ، لكن، إلى أين نمضي ؟؟ بعض ظلالٍ ومزار، حروفٌ لم تمل الرغبةَ، وحدها الريشةُ تخدشُ صورتَه وعيناه مسبلتان .على طاولةٍ كسولةٍ، مثلَ جرس كنيسةٍ ومئذنـةٍ متـأخرةٍ حيـثُ الورقةُ والساعةُ الناطقةُ لم تكـن تعمـلُ كرسـي أعـرج، ومسوداتٌ متآكلةٌ، مثلَ روحِهِ الدائمةِ ... يستمع إلينا ونحن نمازح موتانا، وهم يرقبون الحياةَ وهدأة الزئبق .

بيروت ١٩٩٤

بوارح العدم حيثما الآن، لاقـلاع، ثمـةَ أميـر، وجماجم حيتانٍ، أسنان مرصعةٌ على الساحل مـا صـدوْتُ

أحبابي، لكنهم أوصدوا جدار الغيمِ والمراكـب الطـائرةَ سحبوا الحياةَ الى جهةٍ أخرى.

لم يكن قنديلي المعلقَ من زمانٍ لأضـع قبضـتي علي . .

هناي وأنتم تشرون عرقاً

خرجوا ليزجوا أعناقَه

أفر دوماً ولا يطالني غير العدمِ

لتبقى الخوذةُ التي ورثَها جدي

أسوقُ القطيع الذي يحصي شؤوني

ألامس هزالاً أصابني وبعض المترنحين حولي .

أشد الناسِ غربةً . . .

مذْ رأيتُ تكورات مبهمةً الحكيم والنسـاء اللـواتي أبدين ملاطفتي يحملْن صوراً داكنةً أشد الأمـواتِ حاجـةً لوحدتِهِ . .

عدتُ أسألُ عن ميتةِ جدي في القنيطرةَ . . قالَها أبي بأسى أسى الوحيدِ الفاقدِ أما لي زهرةٌ ؟ لأشم ما فاتَني مـن زهورٍ . . واحدةٌ . .

تعيد لي أشكالاً نسيتُها يكبرهن الذي يصغرني شاخَ مبكـراً، بعـدي . . زهـرةٌ، تفـك الزكـام، وأشـم مثـلَ جروٍ غريرٍ كنْتُ المدللَ، وكنّا أجنةً في رحمٍ يؤاتيهِ الموتُ، كلما هام جنين بحجمِ التعبِ .

التابوتُ الذي صنعتُه من خشبِ الجوزِ، القبر الذي زنّرتُه بالرسوم

من يحلم بطيورٍ آدميةٍ، غيري طيورٍ يحكين عنهـا تقـود كوكبـة نسـاءٍ مزينـةٍ بـالزمردِ واليـاقوتِ ثمةَ عين تنظر من الأعلى .

شبان بزهوٍ وفلتنةٍ

حيثُ أغنياتُهم أتتْ من بهوٍ عميقٍ اجتمعـوا تحـتَ صيحاتِ البريك كانوا حاشيةً . . ركبوا أراجيح مـن غبـارٍ وعرباتٍ دون حبالٍ . . .

بيروت ١٩٩٢

كواتم

يلتحفون قباب البيضِ وعروفَ الديكةِ

قالوا: هذا عكازك مددتُ يدي وإذا بأصابعي تسـقطُ وضعتُ عكازي على رأسي، ثم صاحتِ الديكةُ: أحمر شفاهٍ

وعكاز يمشي . كانتِ الساعةُ إلا ربعاً وخمسةً وأربعين بعـد النومِ يحدثُ أيضاً أن تكون امرأةٌ في سن اليأسِ تذهب ليغفر لها اللهُ وإذْ بها في حضن رجل دينٍ، لا أكثر . . .

وحدثَ أيضاً، ثمةَ رجلٌ ينتظر ليجلسـه القرفصـاء ويلقنَه الدرس ذاتَه فما جمع الأمرين معـاً، خشخاشـةٌ فـي جزين .

ثمةَ آخر يتغزلُ ببقرةٍ، تنتج في الشهرِ الواحدِ أربعةَ كتبٍ. يتوافد آخرون الى بستانٍ في أعلى التلةِ مـع الكـلابِ السلوقيةِ كدمى مترنحةٍ في الخشخاشةِ، يسلقون الكلام والنبوةَ تبدو صلاتَهم لكلٍ ذي دينه يمضغون التبن والورد . . . ينبتُ الشباب والهلاهيلُ تعلو

أبي ليس كعادتِهِ، لم يعاكس زوجتَه، كـان يصـلي أربعين ركعةً، عندما اقتربتُ منه كان مجرد جثةٍ أمي تغـار عليه لم تكن تعرفُ سر صمتي فجأةً، لم تقترب مني، لم تقلْ لزوجِها الراحل تقبـلَ اللهُ، كانـا جثتـين . أدور حولَهمـا، أضحك . . لا أحد يدري عن طفـلٍ بخـواءِ دارنـا هنـاك البدايةُ . . .

كانا يعدان للاحتفال بعيدي أحدهم دس الزرنيخَ مع الحلوى وصلَ الطبيب متأخراً على حمارِهِ وسـرجِهِ المائـل مضى الطفلُ بخطى متثائبةً ولم يجد أحداً ليـدس الـزرنيخَ له . .

بيروت ١٩٩٥

من زمان

عندما أسقطَ شكلي من فوهةِ شمعدانٍ، خدعني، ثـم عابني ظله قُبيلَ الخطوِ مع أنه كان يمشي مخلفـاً حيـارى تهدموا . كنْتُ مثلَهم، تكسرتُ بالقربِ من سيرةِ الجنِ والملاكِ تصاحبنا طويلاً . . ما إن تآخينا أُفرِج عني كان ذلـك مـن زمانٍ . . . عندما هويتُ في سجنِ المليشياتِ بعـدما أكلْـتُ اصابعي ورماني الحب من زمانٍ .

مجدليون ١٩٩١

أربعون الثلاثين

بعد أن حدثتُكم عن قتل الـوردِ وضـلال الحكايـةِ، سأحدثُكم عن خوارج العمرِ الى الخسارةِ .

بعدما الإسفلتُ والمدينةُ، الحـوافر ذابـتْ، عمـري مثلكم، وعيون بيض على دفترِ الروحِ، ثـم علـى خشـبةِ مهرجين . .

لم يكن تاجها الموضوع، التاج الذي خلعتْـه، لكـن الزهور الزهور، ذابتِ الزهور والمدينةُ تنهض .

قلْتُ لعرافتي : بعد اعتكافٍ مريرٍ عن جسدٍ فلـةٍ، قَلَبتُ فنجاني ونامتِ الأشياء حولي.. لم تكن في الثلاثين، لم تكن في أربعين الثلاثين، قلْتُ كيفَ لي أن أكـون وعينـي مغمضةٌ في الثلاثين الثلاثين... فكي العصابةَ في الاربعين [الأربعــون الآن فــي مرســيليا] لا يشــغلُها صــوتي، أرتلُ عن رجلٍ يقفُ خلفَ منبرٍ، مصـفراً بنصـفِ ذقـنٍ، أعني فريدي المدفون برأسي .

ما كنْتُ أنا . . . لذا سكّرتُ القاب دونمـا رحمـةٍ، تركتني بملءِ الصمتِ أهذي .

أَسألُ كمن قشر الغيم عن سقفِ الكون، يـدي علـى معطفٍ غادرتْه مدفأةٌ، على سماءٍ تَسيلُ لعابي.

لم أدن إلى شهدٍ وهو ينز بكل ما أوتينا من ذنوبٍ. لم تذرفْ عيني وأنا أمد يدي، خائبةٌ يدي على ملمسِ تاجٍ ينـز عنفٍ، كعادتي أفطن إلى مالا يناسب ولوج اللحظةِ مندهشـاً، أترصد دبقاً على تاجٍ، لم يكن التاج حزيناً... لكني كسـرتُ النوم على رأسي، وهي بذاتِ النوبةِ تُلبسني ثـوب عـريسٍ عتيدٍ. مدديني على صوتِكِ.. ومضتْ الـى خـواءٍ، ألامـس

عشرةَ أجسادٍ بنومي، قد لا أكون ثملاً بمـا يكفـي لأسـكب روحي.

هلْ أنا ثملة ؟

ثم سكبتُ ماء اللهِ علي، ولأن اللهَ يرمقُنـا تعثـرتُ، ولأن الرغبةَ تختبئُ في كيسٍ أُدثّره في وسطي كنْتُ خاسراً وأكيداً .صدري نحو أسفلٍ، قد أمشـي علـى أربـعٍ، لكـن الخمرةَ.. لا أحب الخمرةَ تلك، لكنها تفضلُه. أشرب كما لـو أنني أكتشفُ وجهي أحشائي صيدليةٌ مناوبةٌ، لكنها تصر على حبوبِ الرغبةِ، فلو تهدأْ رجفةُ عيني لأعطلَ التوبةَ في حلْقي

روحي على كف ، ثم بكَتْ... لم تذرفْ عيني، لكني ممدد وهي تحدقُ بكل ما تكمنُه دهشةً، مالا أفهمه ليلةً ..ليلةً وأبقى مأخوذاً بها .أستحضر طيفاً رفيعاً يتصلُ بمقبرةٍ وصلاةٍ في كنيسةٍ ..هكذا هم .. على ناصيةِ وقتٍ نغنيهِ ولا نصـلُ .. أذكر جريمةَ حبٍ بعد سنواتٍ مضتْ، على مرأى ثلاثةَ عشر روحاً تتواثب .ألاحظُ الجميـع أدور حـولي، بقايـا نشـيدٍ وكلام يذبحني...

لم تعدِ الحكايةُ كما بدأَتْ، لكنهم رقصوا.. جمـيعهم رقصوا، رائحةُ دبقٍ لفائفُ تبغٍ، وقلبـي يفرفـر نـدماً...

أنـــا فـــي حقيقـــةٍ أخـــرى طفولـــةٌ ممرغـــةٌ، قرب مدينةِ ملاهي في حي الشراكسةِ لو كنْتُ أكثـر تهـذيباً وأنا أراقب هيكلاً يشبه سيارةَ جيب تتأرجح على حبالٍ تصلُ تلالاً بعلوِ النظرِ تُدعى " تلفريك "

أتخبطُ على بلاطٍ، ولا ينسيني مالا أرغبه أسألُ ماء توبةٍ، وأنتِ لا تحبين النوم كي لا أرمقكِ وأنتِ " سـكرانةٌ " مني .

لأن التاج دبقٌ، والنشوةَ ضاتْ، حملتُكِ بكلتا يـدي، ولأن التوبةَ في علبةٍ خارج الحياةِ، علي أن أدرك تسـريحةَ شعركِ.

دمشق ٢ حزيران ١٩٩٥

قطاف

تمرين علي ؟ وأمضي، إلى ذاك الطريق، حيثُ العلم يرتجفُ، يدي لم تهدأْ، البحر يجر مراكب غرقى، اللهُ ينـدب ... كان الإزدحام على مصطبة الجسر الذي قصفَني، كانتْ آخر ورقةٍ قطفتُها، ربما صفصافةٌ، ربما نهر، وأنا لم أكـن أجري، أقايض كتباً ببريدٍ لا يصلُني، أنحـدر مـن تـاريخٍ أجهله، ثم أصبو.. ليس سوى امرأةً، ثم ذاك الرجل مـا زالَ يشتم .

مع ذلك، أجدني أمام حشدٍ متدافعٍ، بعضهم أضـاع البلادةَ، وأنا لتوي أهرب، ظناً بأنني بترت قدماه- باسِمٍ مِـن خولَني، أعاكس ظلي وكلامي العابر، أنسكب دفعةً واحـدةً وقليلةً، على فراغٍ يداهم ذُهولي، واختزالاتٍ . . .

من لهفةٍ ضاعتْ، إلى خوفٍ أعـوج، ممـن أفتقـد ملاِمحه كفقاعةٍ تلاشَتْ .

كان الباب ينز شبقاً، تمنيتُ لو أنسـل مـن عينيـهِ المغمضتين.

لم أكن الذي قالَ، لكنهم رأَوا مهزوماً يلـبس تـاج قيصر، زين أسرةً وصـبا بالـذي سـوى الأجسـاد كهـذا الانسكابِ .

لكن، دوماً مفاتيح العمر صدئه، تشدين دونما رحمةً، وأنا مزروع هناك . . .

أهيئُ نفسي، كي أمرر مأربكِ، وهذهِ أخرى تنـبطح الى قربي، أنتظر أياماً ُأخرى، ربما العمر كله، وأنتِ لن . .

مسكِ طيفي، وضفْتِ ذرعاً، تتنفسين كلاماً، كما لو أنني صغْتُه . .

أحايلُ شيبةً، لم أعرفْ َأنها تحفةٌ للزينةِ، كبلاهةِ قادمٍ من صحراءٍ، داهمتكِ، شب شبابكِ فجأةً، لم أقطفِ الشـيبةَ، قطفْتُ الرغبةَ ورمشةَ الخجل - ما كنتِ تودين المثولَ أمـام ضريحي.

كنْتُ أجولُ حولي، ثم رأيتُ الجنّةَ فيـكِ، وبعـدما كانتِ الحياةُ ممرغةً أرخيتِ سرجكِ، ودخلَ غيري، رحـتُ أشد بيدين، أنفثُ من رئتي دخاناً، وأنـتِ بحضـورٍ آخـر، راحتْ أوراقي تؤلمني، وثمةَ كرسي يتشيطن، ثـم الحكايـةُ تؤرقُني، ما رأيتُ إلهاً يبتهج في موسمِ ذبحٍ، في كـل برهـةٍ

أطالبكِ بترميمٍ خرابي، هذا القطيع الفالح بالشـرودِ، أطالبـه دوماً، ما كنت شاهدةً علي، وأنا أترصد زفةً واكبتُها، كنْـتِ ترمشين كلامي، ومطافٌ يغرز جثتي، كمـا لـو أنـكِ لا تدرين، ما زلتْ أردد: تمرين علي ؟

صيدا ١٩٩٤

نعاس التوبة

حشد كلامٍ.. بعضه يجلس على طاولـةٍ، وبعضـه يتناوب على رفوفِ مكتبٍ، كما لو أنني أحدد حيـاةً، كلمـا سقطَ حرفٌ من ذلك الرف، ووجد فرصةٌ ليتهامس مع شقيقٍ عاقبتُه.

يؤلمني كلامي ...

حين يطالبك قراءة وجهي، وأنتِ أقرب إلى لثـغ، كلما تبين ما أخفيته وانبكِ جمهور بسببي.

يريحني العتب...

كمن يستحقُ زيارةً من القصرِ ذاك، أجدني في غير لحظةٍ، على فهرسٍ أعده، وليس لي مع العالمِ أدنى حكايةً، غير لحظةٍ أنسفُها كلما اتضحتْ سوى مفرداتٍ تخرج عـن طوعي - لا حكاياتٍ هنا - أسرد من حيثُ لا بدايةَ، أختبـر

قدرتي على الحيلةِ، لأنني جمع لا يلتقي إلا بمواسمِ نـدبٍ، مجرد أفرادٍ يتشاطرون على توبةٍ، وهم أبعد ما يكونون عن ندمٍ .

مجرد وهمٍ بصيغةِ جمعٍ، لأننا بفعلهِ نـدفع فظاعـةَ الزمن وما يخبئُه من رهانٍ مطلقٍ.

عن وقتٍ غادرني، صلب على مدافن،عن موتٍ فـي مطلقِ الأحوال ينهي عزلتَه، مـن حيـثُ لا بدايـةَ، حينمـا وضعتُ آخر نقطةٍ، أمام من قلّب أوراقي وروحي معهـا، تاهتْ عيوني والحكايةُ دون راوٍ، حكايةٌ كتلك، على طاولـةٍ ليستْ إلى قُربي، تجلسين خلفَها، تقرئين عزلةَ هـذا الـنصِ وروحي ترتجفُ .

كما لو أنني حياةُ غيري، كأن بـي مـس، روحـي تسبقُني، أقبض على انكتابٍ، وحولي مسافةٌ لـن أصـلَها . يروى بأَنها مزحةٌ تنطوي على خداعٍ، وأبدو لعثمةً.. كمـن يسدلُ ستاراً على رجفةٍ، كأن لا أزور الصرح ذاك، كمـن يسيج مرامي تائهين، يحاولُ إضافةَ نقطةٍ، يوم كانَتْ أعوادنا طريةً، وعيونُنا دقيقةً، بحجمِ النقطةِ التي يحاولُها ذاك .

كأن لا نملك سوى خساراتٍ، نحملُها بشهامةٍ مهدمةٍ، كأن كل شيءٍ لا يبدأُ .

أود لو أسرد خاتمةً، في حين كانتِ الحواس بعيدةً . أربكَني كلام.. وحده جعلَني أسقطُ دون ترددٍ . مزقَني ذاك الصباح، نهرني صوتُ المنبهِ، شربنا ما تيسر وأدركْتُ مجدداً بأنني لستُ أنا . . .

كمن يفقد أُماً، تهرولُ أمامه الحياةُ واللغةُ، حملْتُ نعاساً وبعضاً مني، غدوتُ مثلكِ علي أخافَني منظر زجاجٍ فيما لو تكسر، وددتُ فعلَ غير ذلك، كي أزاوج بين رهافةِ المرأةِ ودقةِ الملمسِ على زجاجٍ لم يتكسر .

في حين عائلةٌ وأصدقاء يفهمون أبجديةَ خوفي، لم أخسر غيرهم . . . من أجل ظلالٍ تنتظر طيفاً قبيلَ العمرِ بكرةِ مضربٍ . أتحسس نحولةَ أعضائي، من وشايةٍ تدلني إلى عاصمةٍ تسكن مصحاً، أفتكر بما قيلَ منذُ زمنٍ: لن يتجاوز عقداً ثالثاً، سرقَ وجهه . . . ثم أشاطرك الرأي لشدةِ غروري، من يكتبِ النعاس غيري ؟

اليوم الأخير مغادرةٌ لن أصلَها، ثمةَ نزعةٌ جعلَتْني أمرغُكِ وأنتِ على أهبةِ الخروجِ، قبضنا على الموتِ من

عنقِهِ، كأنما لستُ أدري أصغي لصوتٍ يتلعثم وطراوةٍ مـن يباركه . . لم أرمق الساعةَ...

رهافةُ ملمسٍ ولغةٌ تحيلُني كـي أتـذكر، أفتـرض شارعاً وأنتِ بصحبةِ لا أحد.. تدخلين مركزاً لا علاقـةَ لـه بشيءٍ تخرجين بصديقٍ وظلي يلهثُ خلفَكِ .

كيفَ لروحٍ أن لا ترتجفَ ؟

أن لا تغادر أصلَها..؟ ثياب مرميةٌ، وثمةَ ما أحالَتْـه لغةٌ تنام بحجرةٍ، كمن يعاند أمه، هربتُ نحو أسفلٍ، جسـدي ليس معي، ما زلتُ بذاتِ النوبةِ، الذين مثلَ النعاسِ، بعـض من دمر حياةَ آخرين، ليسوا معي، أفتكر ليلةً عنـد مـدخلٍ، أنتِ بالقربِ من ثيابِ رجلٍ فقد صورتَه وإبهامه الأيسر، نسي ملامح أهلٍ ومدينةٍ، يسعلُ أسى وكراتِ ثلجٍ ..توبةٌ عن ندمٍ.. ندمٍ ولا طيفَ هنا، ولأنني هكذا عليكِ بأمي، على مشـارفَ عنتاب تتكلم عن الحب والإعتقال وتنسى الذي بي. ولأنـكِ لستِ كذلك، أروض نفسي على دروسٍ، لأنني أبعد ما أكون عن لغةٍ.[...]

رهن اعتقال توبةٍ، أحاولُ أقل شيءٍ.. كلام يتـرنح على رغبةٍ، على مرمى كرةِ نارٍ، إلى أسفلَ، حيثُ لا بشـر

من غيرِ كوكبٍ، كمن يمسك ظله ويتوارى، أستوضع توائماً للفرجةِ...

أقبض على هواءِ غرفتي، أنتظـر أحـداً ليرمينَـي سهواً..

موسكو ١٩٩٥

الكتاب مأخوذ من رابط موقع جهة الشعر التالي

http://www.jehat.com/ar/default.asp?action=article&ID=٨٥٨

للكاتب أعمال منشورة منها :غنائية الموتى فـوق هامش الممالك: عام١٩٩٣ وخدر السهو: عام ١٩٩٦ والحفيد السري "أورهان أوزباي" :عام ١٩٩٩ وزهور النـار/ مـن الالف الثاني في الكومنولث تحديداً: عام وأتشـكل / آخـر الحي الاثني أول النفق المزدحم:عام ٢٠٠٢

كمـــا ترجمـــت نصوصـــه الـــى الفرنســـية

ـ أما في الجانب الثقافي :أصدر في العام ٢٠٠٣ مجلـدا تضمن على إرهاصات في الأدب والفكر والسياسـة تحـت عنوان (جدل الآن – إلى الألفية الثالثة في الانتقاد الفكـري والسياسي وعن قضايا الديمقراطية والقمع والاستلاب وعلاقة المثقف بالسلطة)